الهوامش:

* قدمت خلال الندوة العلمية التاريخية حول: "تاريخ الأندلس في الذاكرة العربية" النعقدة في جامعة حلب (سوريا) يومي 4 و5 مارس 2003م.

1- فراد محمد أرزقي- القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1991م- ص1-2.

2- نفسه - ص 123-124.

3- عبد القادر بوباية- مفاخر البربر دراسة وتحقيق- رسالة ماجستير تحت إشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم فخار والدكتور غازي مهدي جاسم الشمري- معهد التاريخ- جامعة وهران السانية- 1417 هـ/1996م- المقدمة ص 7.وقد نشرت هذه الرسالة في جانفي 2005م في دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط-المملكة المغربية.

4- نفسه - المقدمة - ص .8

5- نفسه- ص .17

6- نفسه- صص 55-63.

7- أحمد بن محمد المقري- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب- تحقيق احسان عباس- دار صادر- بيروت- ط2- 1997م- ج3 ص.412

8- عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)- رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي تحت إشراف د.غازي مهدي جاسم الشمري- قسم التاريخ-جامعة وهران السانية- 2002م- المقدمة صص د...ز.

تلمسان في مواجهة الحملات الحفصية المرينية

أ./ عبيد بوداود

لا نريد من خلال هذه المقالة التعرض بالتفصيل لجميع الحملات العسكرية الحفصية والمرينية التي استهدفت الدولة الزيانية، لأن المقام لا يتسع لذلك، ولأنها كانت من الكثرة والاستمرارية، ما جعلها الميزة العامة للعلاقة بين الدولة الزيانية، وجارتيها

الدولة الحفصية والدولة المرينية طوال الثلث الأخير من العصور الوسطى تقريبا. كما أن المصادر والمراجع التي اهتمت بهذا الموضوع طافحة بتفاصيل هذه الحملات وآثارها.

ولكننا سوف نقتصر على البعض منها حتى نخرج بتصور عام للعلاقات السياسية بين الدول المغاربية الثلاث، ومواجهة الدول الزيانية لهذه الحملات.

وثمة مشكل منهجي لابد من الاشارة إليه، يتمثل في عدم استقلالية وموضوعية أغلبية المصادر التاريخية المهتمة بهذه المرحلة، لأن أكثرها كان يناصر طرفا ضد آخر، حتى عد البعض ناطقه الرسمي، كما هو الشأن بالنسبة لكتاب "روضة النسرين في دولة بني مرين" لاسماعيل بن الأحمر، الذي يتحيز للمرينيين بشكل واضح، وهذا ما أثبته في مقدمة كتابه بقوله: "لما فرغت من الدولة المرينية في هذا المصنف، وأتيت من آذان إجمالها بالمقرط والمشنف، وكنت لأعدائها بالمعنف ولم أك بالمنصف...فها أنا أشرع في التأريخ على ما يرضي الدولة المرينية".

ونفس الأمر ينطبق –ولو بدرجة أقل- على ابن قنفذ القسنطيني في كتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، ويحي ابن خلدون في "بغية الرواد في ذكر الملوك

* أستاذ مكلف بالدروس في تاريخ المغرب الإسلامي-معهد التاريخ-م.ج.معسكر.

من بني عبد الواد"، وعلي بن أبي زرع الفاسي في "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، ومحمد بن عبد الله التنسي في" نظم الدر العقيان في بيان شرف بني زيان".

كما أن موضوع هذه المداخلة قد لا ينطبق تماما على عنوان هذا الملتقى الوطني، على اعتبار أن المقاومة تعني في المقام الأول مقاومة الدخيل الأجنبي، والصراع الذي كان موجودا بين الدول المغاربية اقتصر على السلط الحاكمة بالدرجة الأولى، وكانت الشعوب المغاربية ضحية له.

إن تفكك الدولة الموحدية- التي تمكنت من بسط سلطتها على بلاد المغرب الاسلامي وجزءا من الأندلس، والتي عمرت مائة وأربع أربعين سنة (524-668)[1] سوف يخلق ثلاث وحدات سياسية وهي: الدولة الحفصية (المغرب الأدنى)، والدولة

الزيانية (المغرب الأوسط)، والدولة المرينية (المغرب الأقصى). ولم تكتف أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضم بقية التركة الموحدية، إما بادعاء أنها تمثل استمرارية للدولة الموحدية (الشرعية الموحدية)، كما هو الشأن بالنسبة للدولة الحفصية، أو رغبة في التسلط والزعامة على الملك، وعرش زناتة كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية. (2)

وعلى الرغم من أن الصراع لم يغير الخريطة الجيو- سياسية للمنطقة جذريا، ولم تتمكن أي دولة من بسط سلطتها المطلقة والدائمة على بقية الدولتين بسبب توازن القوى، إلا أن هذا الصراع، خلف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الاسلامي برمتها، وأهدر طاقات كبيرة كان من الأجدر استغلالها في مواجهة العدو النصراني الذي كان يتربص الدوائر بالمنطقة، ويقتطع مناطق الأندلس الواحدة تلو الأخرى، ويشكل خطرا طالما ظل يتصاعد على السواحل المغاربية. (3) والأخطر من ذلك انشغال دول وشعوب المنطقة عن مواجهة التحديات الحقيقية القادمة من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

وكانت الدولة الزيانية (العبد- الوادية) أكثر تأثرا بالصراع بين القوى المغاربية، وأكثر عرضة له بسبب موقعها الجغرافي الوسطي بين الدولتين الحفصية والمرينية، وبالتالي تعرضت إلى ضغط مستمر من هاتين الدولتين منفصلة أحيانا، ومتحدة أحيانا أخرى، وظلت حدودها تعرف مدا وجزرا تبعا لذلك.

تلخص الصراع الحفصي- الزياني في أمرين: الأمر الأول، رغبة السلطة الحفصية منذ أن استقلت بأمر المغرب الأدنى (افريقية) في بسط سلطتها على باقي بلاد المغرب الاسلامي- وهنا يأتي المغرب الأوسط في صدارة اهتمامات هذه السلطة بحكم الجوار – باسم الشرعية الموحدية، على اعتبار أن الحفصيين يشكلون امتدادا للعرش الموحدي.

والظاهر أن السلطان الحفصي أبا زكرياء يحي بن أبي محمد (625- 647هـ) ظل يخامره هذا الشعور وتلك الرغبة طوال فترة حكمه، بل ومنذ أن اشتغل بأمر افريقية

في سنة 625 هـ غير أن انشغاله باستتباب الأمر له أولا، ثم محاربة بني غانية ثانيا،[4] هو الذي أخّر الشروع في إنجاز هذا الطموح. أما الأمر الثاني فتمثل في صراع الدولتين على بسط سيطرتهما على المناطق الشرقية من بلاد الجزائر الحالية.

إن أول حملة سّيرها السلطان الحفصي أبو زكرياء إلى تلمسان لفرض سلطانه عليها، كانت في أواخر سنة 639 هـ وأوائل سنة 640 هـ هذه الحملة التي قادها بنفسه، وعبّأ لها جيشا ضخما تراوح عدد رماته فقط ما بين أربعة وعشرين ألفا وأربعة وستين ألفا، وحوصرت المدينة عدة أيام قبل أن تقتحم أسوارها، [5] ويعمل فيها وفي أهلها القتل والنهب والتخريب.[6]

لكن أبا زكرياء لم يعثر على شخصية قوية يمكنها أن تمثل السلطة الحفصية في تلمسان. والظاهر أن أحدا لم يجرؤ على ذلك في وجود يغمراسن بن زيان(633-681هـ) فلم يجد أبو زكرياء بدا من الاتصال بيغمراسن، وإبرام الصلح معه على أن يعود إلى تلمسان حاكما لبلاد المغرب الأوسط باسم الحفصيين. [7]

إن إخلاء المدينة، والتحصن بالجبال المجاورة أو التوغل داخل الصحراء، كانت من أهم الوسائل التي يلجأ إليها أمراء بني زيان، خاصة حينما يشعرون بصعوبة مواجهة الجيوش الغازية في حرب مواجهة مفتوحة، وكانوا في أحيان أخرى يفضلون الاحتماء داخل أسوار المدينة معتمدين على قوة تحصيناتها.

ويبدو أن هذا الصلح ظل قائما، والدعوة لبني حفص على منابر تلمسان محترمة إلى أن عطلها عثمان بن يغمراسن (681-703 هـ) في أواخر القرن السابع الهجري[8] مما سوف يؤدي إلى تدهور العلاقة بين الطرفين من جديد.

ظل التوتر يطبع العلاقة بين الجانبين إما بسبب النزاع على بعض الأقاليم والمدن، كما هو الحال في الصراع الذي دار بينهما سنة 732 هـ للسيطرة على بجاية، حيث وجدت السلطة الحفصية دعما من السلطان المريني أبي الحسن علي عثمان (731-752هـ).[9] أو لفرض الشرعية كما حدث مع الحملات العسكرية على تلمسان سنوات: 827هـ و832 هـ 835 هـ و866هـ و870 هـ . [10]

إن تعدد هذه الحملات دليل على حالة الحرب التي كانت شبه مستمرة بين الدولتين، وعدم قدرة السلطة الحفصية فرض سيطرتها المطلقة على تلمسان، التي كانت تحدوها إرادة قوية نحو الاستقلالية في شؤونها الداخلية، لذلك كانت تشق عصا الطاعة كلما سمحت الفرصة لها في وجه الضغط الحفصي. وبالمقابل كانت هذه الحروب المتكررة تشيع حالة اللااستقرار واللاأمن، وتستهلك طاقات وموارد باستمرار، مما شكل نزيفا حقيقيا لإمكانات البلدين.

ولم يكن الصراع العسكري يقتصر على المعارك بين الجيوش، بل كان يتعداه إلى حصار المدن، ولمدد مختلفة قد تطول أحيانا. وكان السكان يتأذون من جراء ذلك، لأن اقتحام تلك المدن غالبا ما كانت تتبعه أعمال النهب والتخريب عدة أيام، وحتى البوادي لم تسلم من ذلك التخريب، حيث كانت تنتسف المزروعات وتحرق الغلات، و تتلف الآبار وعيون المياه بالإضافة إلى تعطيل الإنتاج بسبب حالة الحرب أو الخوف من نشوبها.

ولقد أثّرت هذه الوضعية التي كادت أن تصبح جزءا من الحياة اليومية لإنسان المغرب الأوسط- في نفسيته، وجعلته أكثر ميلا إلى العزلة، وقليل الركون إلى الحياة الدنيا، وغير مكترث بها. ولم يجد في هذه الظروف من يعبر عن نفسيته، ويحاول التنفيس عن كربه إلا الخطاب الصوفي الذي كان يركز على احتقار الدنيا وملذاتها، فجاء هذا الخطاب مسايرا لذلك الانطباع الذي بدأ يتعزز يوما بعد آخر لدى إنسان المغرب الأوسط تجاه نمط الحياة.

أما الصراع ما بين بني عبد الواد وبني مرين، فكان أشد ضراوة، ودار ذلك الصراع على اختلاف بواعثه المعلنة حول رياسة زناتة، وملك المناطق التي تنتشر بها هذه القبيلة البربرية الكبيرة. ومما أجّج ذلك الصراع تجاور الحيين، وعدم تمكن أحدهما من فرض سيطرته المطلقة على الآخر.(11) وكان بنو مرين هم المبادرون بتسيير الحملات العسكرية صوب أراضي الدولة الزيانية، والتي عرفها أواخر القرن السابع الهجري وطوال القرن الثامن الهجري، والتي غالبا ما كانت تنتهي باحتلال أراض واسعة من بلاد المغرب الأوسط، بما في ذلك عدة مدن ومحاصرة العاصمة تلمسان. (12)

ففي أواخر القرن السابع الهجري، سيّر السلطان المريني يوسف بن يعقوب (635-706 هـ) خمس حملات عسكرية ضد الدولة الزيانية، وذلك سنوات: 689 هـ، 695هـ، 696هـ، 697هـ، 698 هـ. [13] وكانت هذه الحملات غالبا ما تنتهي بمحاصرة العاصمة تلمسان بغرض اقتحامها، وحينما تستعصي عليهم، كانوا يعملون التخريب في ضواحيها أو في الأقاليم التابعة لها. وسوف نكتفي في هذا المقام بتسليط الضوء على حملتين لمعاينة الآثار السلبية المترتبة عنهما، وهما حملة سنة 689 هـ وحملة سنة 698هـ التي شكلت إيذانا ببداية الحصار الطويل أو ما يعرف بحصار الثماني سنوات لمدينة تلمسان.

ففي الحملة الأولى (689هـ)، ضرب يوسف بن يعقوب حصارا على مدينة تلمسان دام أربعين يوما حيث أحاط بأسوارها من جميع الجهات، وأقام من حواليها الآلات بما في ذلك المجانيق [14] . وكان في أثناء ذلك الحصار: " ينسف الآثار، ويخرب القرى، ويحطم الزروع... ولما امتنعت عليه أفرج عنها، وانكفأ راجعلى المغرب "[15].

إن أعمال التخريب التي تصحب الحملات العسكرية في الغالب، كانت تترك آثارا عميقة لا تزول بانجلاء الحصار طبعا، وتؤثر مباشرة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية سلبا لسكان المغرب الأوسط، سواء على مستوى مزاولة النشاطات الاقتصادية في حد ذاتها واستمراريتها، أو في مردودية تلك النشاطات.

أما الحملة الثانية، فتتمثل فيما يعرف بالحصار الطويل، والذي بدأ يوم 2 شعبان 698هـ[16] وانتهى في ذي القعدة 706هـ، ودامت مدة الحصار ثماني سنوات وثلاثة أشهر، فقدت فيها الدولة الزيانية معظم أراضيها ومدنها، وأحيط بعاصمتها من جميع الجهات، ونال أهل تلمسان المحصورين الكرب العظيم: "...واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق، بما تجاوز حدود العوائد، وعجز وجدهم عنه...واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم."[17] ولقد

تسبب هذا الحصار في خسائر بشرية فادحة، قدرت لدى بعض المؤرخين بحوالي مائة وعشرين ألف ضحية من جراء القتل والجوع.[18]

ولقد انتهى هذا الحصار الطويل على إثر مقتل يوسف بن يعقوب على يد أحد خصيانه، وانعقاد الصلح مع خليفته(حفيده أبو ثابت):"وأهمك الجهد حامية بنى يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك، فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة؛ فكيّف الله لهم الصنع الغريب.ونفّس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصى من العبدي أسخطته بعض النزعات الملوكية، فاعتمده فى كسر بيته ومخدع نومه، وطعنه بخنجر قطّع أمعاءه، وأدرك فسيق إلى وزرائه ومزقوا أشلاءه...وأذهب الله العناءة عن آل زيان وقومهم وساكنى مدينتهم، فكأنما نشروا من الأجداث، وكتبوا لها فى سكتهم ما أقرب فرج الله استغربا لحادثتها..."[19] .

لم تنقطع الحملات المرينية الموجهة ضد دولة بنى عبد الواد طوال القرن الثامن الهجرى،حتى عد هذا الأخير قرن حروب بين الدولتين[20] .ومن أهم هذه الحملات، حملة 714هـ بقيادة السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب(710-731هـ)، والتى جاءت على إثر سوء العلاقة بينه وبين أبى حمو موسى الأول(707-718هـ) سلطان بنى زيان الذى اتهم بدعم المعارضة الوطاسية [21].و حينما استعصت مدينة تلمسان على أبى سعيد، سيّر الحملات إلى نواحيها:"وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب (أبو سعيد) على معاقلها ورعاياها، وسائر ضواحيها، فحطّمها حطما ونسف جهاتها نسفا".[22]

ولعل أخطر حملة كانت في أواسط سنة 735هـ من قبل السلطان أبى الحسن المريني، الذي جهز جيشا ضخما،تمكن بواسطته من اقتحام مدينة تلمسان، بعد سنتين من الحصار والحرب المتواصلة،كان في أثنائها قد احتل معظم المناطق والمدن التابعة لدولة بنى عبد الواد، وتم ذلك الاقتحام يوم 27 رمضان 737هـ، وقتل السلطان أبو تاشفين عبد الرحمان الأول(718-737هـ)[23] و"انطلقت أيدي النهب على البلد، فلحقت الكثير

من أهله معرّة في أموالهم وحرمهم "[24] وأدّى هذا الحادث إلى انقطاع الدولة الزيانية إلى أن تم بعثها سنة 749هـ على يد الأخوين أبي سعيد عثمان الثاني وأبي ثابت.

وتواصل الصراع بين الحيّين، نذكر من حملة ذلك حملة أبي عنان فارس(752-759هـ) سنة 753هـ والتي أدّت إلى اختفاء الدولة الزيانية من جديد، وخضوع كامل بلاد المغرب الأوسط لسلطته، وحملة أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن(760-762هـ) سنة 761هـ، وحملة أبي فارس عبد العزيز(767-774هـ) سنة 771هـ واحتلاله تلمسان في عاشوراء سنة 772هـ [25].

ويظهر من خلال هذه الأحداث الأخيرة، أن السلطة المرينية، أصبحت تتحكم في بلاد المغرب الأوسط إما بشكل مباشر، عن طريق إخضاع تلمسان لسلطتها، أو بشكل غير مباشر عن طريق المساهمة في تنصيب سلاطين موالين لها، اصطنعتهم لهذا الغرض من أسرة بنى عبد الواد.

ويبدو أن الضغط المستمر أفقد الدولة الزيانية توازنها رغم ما أبدته من مقاومة، ولم تعد تحصينات المدينة تقوى على رد الحملات المتتالية، ومع ذلك ظلت تصارع من أجل الحياة إلى منتصف القرن العاشر الهجري حيث سقطت نهائيا على يد العثمانيين الأتراك.

الهوامش:

1- ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذ لي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر،تونس 1968، ص108،ص130-131.

2 -جمال الدين بوقلي حسن، الامام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985، ص.16

3-عبد الحميد بن أبي زيان بن اشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، دون تاريخ،ص10-11

4-ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية، تونس،1976، الجزء الأول، ص.196

5-اختلفت المصادر في تحديد سنة وشهر هذا الاقتحام، ومن أين تم؟ فبالنسبة لابن عذاري المراكشي في البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، حدّد سنة 640هـ تاريخا للاقتحام، انظر: المصدر المذكور،قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي،بيروت،1985،ص362. و هو نفس ما قال به علي بن أبي زرع، لكنه حدّده بشهر صفر، و من باب إيلان، انظر: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دارالمنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1972، ص 61. بينما ذكر الزركشي أن دخولها كان في شهر ربيع الأول سنة 640هـ من باب كشوط، انظر: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية،1966،ص29. أما ابن خلدون عبد

الرحمان،فأرجع تاريخ الحملة إلى سنة639هـ دون أن يحدّد الشهر،باستثناء ذكره أن أبا العبر زكرياء عاد إلى افريقية بعد سبع عشرة ليلة من تاريخ قدومه.
انظر:ترجمان و ديوان المبتدأ و الخبر...دار الكتاب اللبناني، بيروت،1983،المجلد السادس،ص607-.610

6-ابن خلدون عبد الرحمان، نفس المصدر والمجلد والصفحات.

7-ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق،ص361-362، ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، المجلد السابع. ص166-167، الزركشي،المصدر السابق،ص29، ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص.61

8-ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر والمجلد السابقان، ص.203

9-ابن خلدون عبد الرحمان، نفس المصدر والمجلد،ص226، ص.228

10-جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص16، ص18، ص.19

11-جمال الدين بوقلي حسن، المرجع نفسه، ص16.

12-عبد الله شريط ومحمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث قسنطينة، الطبعة الأولى، 1965، ص 100-.103

13-ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر والمجلد السابقان، ص194-196

14-ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر والمجلد نفسه، ص196.

15-الناصري أبو الحسن أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، الدولة المرينية، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص69.

16-الناصري أبو الحسن، المصدر نفسه، ص79.

17-ابن خلدون عبد الرحمان، ديوان العبر، المجلد السابع، ص197-198.

18-ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر،1980،ص221.

19-ابن خلدون عبد الرحمان،المصدر و المجلد السابقان، ص199-200.

20-عبد الله شريط و محمد الميلي، المرجع السابق، ص .100

21- الناصري أبو العباس، المصدر السابق، ص104.

-تمثلت المعارضة الوطاسية في شخص عبد الحق بن عثمان و وزيره يعقوب الوطاسي. وعن بني وطاس راجع الناصري، نفس المصدر والمجلد، الجزء الرابع، ص.118

22- ابن خلدون عبد الرحمان، ترجمان العبر،المصدر السابق،المجلد السابع، ص.505

23- ابن خلدون عبد الرحمان، نفس المصدر و المجلد، ص533-536. انظر كذلك: الناصري أبو العباس، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص123-126.

24- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر و المجلد السابقان، ص .536

25-ابن خلدون عبد الرحمان، نفس المصدر و المجلد، ص646-647،ص 671، ص698.

انظر كذلك الزركشي، المصدر السابق، ص72-73، و الناصري، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص58.

أثر الحركة النكارية
على الدولتين الرستمية والفاطمية
من خلال المصادر التاريخية والجغرافية.

✍ ~~~~~~~~~ د/ غازي جاسم الشمري